# الرواية الجزائرية والثورة
# «اللاز» وزمن الثورة على قداسة الثورة

د/ نورالدين بن نعيجة
مركز البحث في العلوم الاسلامية والحضارة
بالأغواط - الجزائر

تتجلى الذّاكرة بإرثها التّاريخي، وبجروحها المزمنة، كتيمة رئيسية في المتن الروائي الجزائري، فهو ميزة لصيقة بجلّ الإنتاجات الروائية الجزائرية، لأنّ الروائيين الجزائريين كثيراً ما يلجئون إلى الماضي بغية استحضاره، بأبعاده الفردية، والجماعية، وبكل مضامينه السياسية، والاجتماعية، والثقافية، ولكن الفرق الأساسي بينهم، هو كيفية النظر لهذا الماضي. فقد كانت رواية جيل السبعينات تنظر في مجملها إلى التّاريخ، وخصوصاً إلى التّاريخ القريب المتمثل في الثورة التحريرية، نظرة تبجيل، وتمجيد، وإكبار، اعترافاً لهذه الثورة، وما شكّلته من مُنعرج حاسم للتغيير، والتحول، وإعادة الاعتبار للذات المفقودة التّي طمسها الاستعمار قرابة قرن من الزمن، والتي أدرك الشعب الجزائري بعدها أنّه لا مجال للتحرّر إلاّ بتفجير الثورة.

بقيت الرواية الجزائرية تنظر إلى موضوع الثورة، نظرة تقديس بعيدة في أغلب الأحيان عن النظرة الموضوعية، والهادفة لنقد الذّات، والدخول في مرحلة بناء مجتمع جديد طالما ناشد الحرية، والانعتاق من القيود، والأغلال، والبحث عن أسباب التقدم والازدهار، لذلك كان لا بدّ من ظهور أعمال روائية تنتقد الواقع بنقد الثورة، فما ذاك إلاّ محصلة للأولى، هذا النقد الذي غذّته التغيّرات، والتحولات، والحياة الجديدة للمجتمع الجزائري بعد الاستقلال.

إنّ جزائر ما بعد الثورة جعلت الرواية الجديدة تتجاوز هذه النظرة الرومانسية للتّاريخ الوطني، وتنظر إليه نظرة نقدية قريبة من الإدانة، بوضعه في حجرة الاستنطاق للكشف عن الخبايّا التّي طالما سُكِتَ عنها، محاوِلةً بذلك "تهذيب الواقع، والمجتمع الجديد، من خلال اطلاعها على مخلفات الماضي، لأنّ أصول الأشياء —في الحقيقة– هي البديل الأمثل لإصلاحها، وتهذيبها، وقد وجد الكتّاب هنا ضالتهم لإصلاح مجتمعاتهم"[1] بإعادة تشكيل وعي مجتمعي جديد بالتّاريخ، يعطي هذا الأخير المصداقية، والحقيقة التّي ينشدها المجتمع، وتمكّنه من القدرة على التجاوز، والنفاذ إلى المستقبل.

لقد وجد الكاتب الجزائري نفسه بين فكي كماشة صورة الماضي القريب، وصدمات الواقع المتحوّل، فكان يلتفت إلى الماضي ليستحضر حرب التحرير، يسائلها طوراً، ويتلذّذ بذكراها أطواراً، وهو في ذلك يحنّ إلى ماض مجيد يستأنس به. وقد يوظفه لنقد الواقع، وقد يقحمه فيأتي امتداداً للخطاب السياسي الرسمي الذي جعل من التراث

الوطني شعاراً لتكريس الشرعية التّاريخية، والمحافظة على السلطة."[2] وفي كلّ الأحوال، فقد كانت الثورة الجزائرية ملهمة لأغلب الكتّاب الجزائريين، والعرب لما حققته من انجازات، وبطولات شهد لها العالم أجمع.

غير أنّ هذه الثورة بالرغم من قداستها لم تخل كغيرها من الثورات من سلبيات جعلت من الروائيين الجدد، يسلطون الضوء عليها، باعتبار أن الجزائر مازالت تمارس تجاهلاً مجحفاً بحق بعض مراحلها التّاريخية، ومن بين هؤلاء الروائيين نجد «الطاهر وطار» الذي قدّم في روايته المشهورة «اللاز» فترة تاريخية جدّ غنيّة بالأحداث السياسية، والاجتماعية تمثلت في الصراعات الداخلية، وتصفية الحسابات السياسية بين الأخوة الأعداء إبان الثورة التحريرية، وذلك قصد البحث "على كلّ السلبيات التّي صاحبت هذه الأحداث، وهي سلبيات ليست في النهاية إلاّ الوجه الآخر للتناقض الطبيعي الذي يحدث في أية ثورة وطنية، بما أنها تضمّ فئات بشرية غير منسجمة طبقياً بشكل كامل، وإن كان يجمعها بشكل ما هدف واحد هو الاستقلال."[3]

ومن أجل تجسيد تلك الفترة التّاريخية الجدّ مهمة في تاريخ الشعب الجزائري، أراد «الطاهر وطار» أن ينقل لنا رؤيته لتلك المرحلة التّاريخية، قصد تقديم تاريخ مضاد للتّاريخ الرسمي الذي طالما سكتت عنه السلطة، وذلك في إطار عمل تخييلي يمكّنه من البوح بالرغم من إقراره في مقدمة روايته بعدم واقعية الأحداث، وعدم ارتباطها بالتّاريخ، حيث يذكر:"**إنني لست مؤرخا ولا يعني أبدا أنني أقدمت على عمل يمت بصلة كبيرة إلى التّاريخ رغم أن بعض الأحداث المروية وقعت، أو وقع ما يشبهها ...إنني قاص، وقفت من زاوية معينة لألقي نظرة بوسيلتي الخاصة- على حقبة من حقب ثورتنا**"[4]. فالكاتب بالرغم من إقراره بتخييلية الأحداث التّاريخية في الرواية، إلاّ أنّه يقر بواقعيتها في الثورة التحريرية، كما يقرّ بنقلها حسب رؤيته الخاصة، وهنا نكون إزاء عملية الكشف عن تلك الرؤية، وكيفية توظيفها في الرواية.

ومن أجل إيصال تلك الرؤية، أو النظرة، كان لا بدّ على كاتب من استعمال مفارقات سردية تمثلت في الاسترجاعات الداخلية، والخارجية، بالإضافة إلى استشراف المستقبل.، غير أنّ تحديد زمن القصة صعب علينا لعدم وجود معينات زمنية تحدّد زمن القصة بدقة، فما يظهر لنا في رواية «اللاز» سوى الحديث عن مرحلة الثورة، والصراعات داخل بيت الثوار، حيث تحكي لنا هذه الرواية وقائعاً، وأحداثاً وقعت أثناء الثورة التحريرية، وبعدها، فلا يتضح زمن القصة جلياً في الرواية التّي تسرد لنا حياة «اللاز» في القرية، وعلاقته بالثكنة العسكرية، والتحاقه بصفوف الثوار في الجبل، وانتهاء بزمن الاستقلال، حيث يبدأ السرد من لحظة حاضرة، عبر ذّكريات «الشيخ ربيعي» والد الشهيد «قدور»، عندما "**أطلق العنان لمخيّلته، تتحسس الجرح... شيء عشناه، وشيء سمعناه.. وشيء نتخيّله**"[5].

من هذه اللحظة تبدأ الرواية، أي من زمن الاستقلال لتغوص في أحداث الماضي المتمثل في أحداث الثورة الجزائرية، وكأنّ الرواية تتشكّل من جديد تبدأ من الحاضر إلى الماضي، وانتهاء بالحاضر، "فالسرد وهو بؤرة الفعل، ومبرره الخاص، يقوم على تصريف حر للزمن : أنّه يقابل بين الماضي، والحاضر، ويفسر اللاحق بالسابق، ويسقط

السابق على اللاحق، من خلال إحالات ضمنية منتشرة في جميع الاتجاهات."[6] والرواية هنا هي مقيدة بزمنيين أولهما زمن الأحـــداث، أي الأحداث التّي وقعت على صعيد النص. وثانيهما زمن الكتابة، أي حاضر تلك الوقائع بعد أن انقضت، وصارت ذكرى وعبرة. والزمنان هنا متدخلان وظّفهما الروائي من أجل تعرية واقع الثورة الجزائرية فـــ «الشيخ ربيعي» هو الشّخصية الساردة لأحداث الماضي، تستفزه حادثة استشهاد ابنه «قدور» من أجل البوح، وإطلاق العنان لذاكرته:

**"– إيه إيه الله يرحمك يا السبع.**

**– سيد الرجال.**

**– عشر رصاصات، ومات واقفاً**

**– يوم حضر أجله. كان المرحوم يهجم ويعيط "زغردي أمي حليمة زغردي""**[7]

فهذه الحادثة وقعت منذ زمن بعيد، أي منذ الثورة التحريرية الجزائرية، غير أنّ الراوي يذكرها بعد الاستقلال. أي في اللّحظة التّي كان السرد فيها بعيداً جداً عن هذا الحدث، وذلك عبر تقنية الاسترجاع[8] التّي استعملها الراوي بالعودة إلى الذّاكرة في لحظة حاضرة، حاول الروائي من خلالها الانطلاق إلى الماضي، عبر إطلاق العنان لذّكريات «الشيخ ربيعي» والد الشهيد «قدور» الذي يسترجع ذكرى استشهاد ابنه من أجل الوطن، وموته موت الرجال الواقفين أمام زغاريد أمهاتهم في عزّ وكرامة، في عملية مقارنة بين الماضي الحافل بالأمجاد، والتضحيات، والراهن الذي أصبح يركن إلى الماديات، حيث أصبحنا نقف طوابير من أجل منحة مادية، بل حتى ذكرى الشهداء، والترحم عليهم، أضحت لا تتم إلاّ من خلال أخذ المنح.

**"إنهم كعادتهم، كلما تجمعوا في صف طويل، أمام مكتب المنح، لا يتحدثون إلاّ عن شهدائهم، والحق أنّه ليست هناك، غير هذه الفرصة، لتذكرهم، والترحم على أرواحهم، والتغني بمفاخرهم.."**[9].

فهناك انفصام واضح بين زمن الماضي وزمن الحاضر، لأنّ الشعب لم يع تاريخ الأمس حينما ضحى الشهداء بالغالي والنفيس، من أجل أن يحيا الوطن، ومن أجل بنائه، وأصبحت ذكراهم، والتغني بمفاخرهم لا تمثل دافعاً للنهوض بالوطن، وإنّما تستحضر من أجل دراهم معدودات.

**"فهم ككل ماضي يسيرون إلى الخلف، ونحن ككل حاضر، نسير إلى الأمام.. لعل هذا اليأس المطبق من التقاء الزمانين، ما يجعلنا لا نهتم إلاّ بأنفسنا، أنانيين نرضى أن يتحول شهداؤنا الأعزاء إلى مجرد بطاقات في جيوبنا، نستظهرها أمام مكتب المنح، مرة كلّ ثلاثة أشهر... ثم نطويها مع دريهمات في انتظار المنحة القادمة..."**[10].

من هذه الزاوية يسلّط الكاتب الضوء على قضية جدّ مهمة هي قضية تشيؤ* القيم الوطنية، وعدم الالتزام بمبادئ الثورة التحريرية التّي ضحى من أجلها الشهداء، ليضع اليد على الجرح الغائر، والهوّة العميقة بين أهداف

الثورة المنشودة، وبين انجازاتها المحقّقة. فيستفزّ مشاعر القارئ، ويجعله يحرك قلق الأسئلة الكامنة فيه. هل هذا ما حققته الثورة لأبنائها، مجرد دريهمات، وهل أصبح شهداؤنا عبارة عن بطاقات منح في جيوبنا؟

إنّ الزمن الذي نعيشه هو زمن التشيؤ، فقد أصبح كلّ شيء عبارة عن سلعة تباع وتشترى حتى مبادئنا، وقيمنا، بل وحتى ذّكرياتنا المجيدة أصبحت لا تستيقظ إلاّ من خلال الماديات، كلّ هذا أصبح على حساب القيم، والمبادئ التّي كانت تراعى في الزمن الماضي. بيد أن الحاضر أصبح يمتاز بالعدمية، والغربة، والتشيؤ. و«الشيخ ربيعي» هنا يبحث عن تفسير لهذه الأنانية التّي يرى أنها نتيجة لليأس المطبق بين الزمانين، الماضي، والحاضر، وصعوبة التوفيق بينهما، ماضي ليس لنا منه "**إلا المآسي... وليس لنا من الحاضر إلاّ الانتظار... وليس لنا من المستقبل إلاّ الموت... نتآكل كالجراثيم، وليس غير...**"[11]

هكذا أراد «الشيخ ربيعي»، ومن ورائه الكاتب تشخيص الزمن من الماضي إلى الحاضر، وانتهاء بالمستقبل، فالوعي القائم بالزمن هو وعي سلبي، ماض مثقل بالمآسي والجراح، خلفتها الثورة التحريرية، طمعاً في حاضر يسوده الرخاء، والعدالة الاجتماعية، والتي لم تتحقق بعد في انتظار تحققها، وتمام انجازها، أو في انتظار مستقبل مجهول. والمستقبل لا يدلّ إلاّ على الموت المحقّق. في خضم هذا الصراع الحاصل مع الأزمنة الثلاث يبقى الشعب يتآكل كالجراثيم، تثقله الحياة التّي يسودها الفقر، والجوع، وتنهكه المادة التّي صار عبداً لها.

فالروائيّ هنا لخص لنا الأزمنة الثلاث للواقع الجزائري في جملة واحدة لكنها مشبعة بالإيحاءات، والدلالات، فماضي الشعب الجزائري كان مثقلاً بالمآسي، والفقر، والجوع، "**والشعب الجزائري، لو أراد ذات يوم أن يلتفت إلى الوراء، للزمه توقف كامل، فهذا الوراء جبال وكتل من الآلام والجراح والمتاعب، من البطولات والانخذالات والانكسارات، تبلغ أحياناً كثيرة حداً لا يصدق الإنسان أن طاقة بشرية ما تتحمله**"[12]. وهذه حالة طبيعية في ظل وجود مستعمر غاشم، مسيطر على ثروات البلاد ومقدراتها، مما استدعى الثورة ضده خلفت المليون ونصف المليون شهيد من أجل أن ينعم هذا الشعب بخيرات بلاده.، غير أنّ الحاضر لا ينبئ بالخير في ظل سيطرة مجموعة معينة على الثورة ومرجعيتها، وجعل البلاد مرهونة في فكر وإيديولوجيا واحدة.

إنّ ما جرى في الثورة من صراعات، وتصفيات جسدية كان بسبب خلافات إيديولوجية لا غير، مما جعل الراوي على لسان شخصيته «الشيخ الربيعي» يرى أن الحاضر ما هو إلى مرحلة انتظار بين الماضي، والمستقبل الذي ينبئ بالانفجار والموت، وهذا ما تحقّق فعلاً، فاستشراف المستقبل عند «الطاهر وطار» كان حقيقياً لوعيه التام بخطورة الموقف، وخطورة سيطرة فكر معين، أو ايديولوجيا معينة على الثورة، وعلى قيادة الشعب فعندما نحمل السلاح ضد بعضنا بسبب خلافات ايديولوجية فإنّ مصير الحاضر مجهول، إذ نجد «حمو» أخو الشّخصية المحورية «زيدان» –وهي شخصية شيوعية تحاول تغيير الواقع– تسرد لنا عن وعيها الممكن تجاه الحاضر.

**"هذا الحاضر الذي أتعاون وزيدان أخي وكل الفقراء على صنعه والذي تريدون أنتم أن تبقوا متفرجين عليه. بعضكم يتفرج والبعض الأخر يعمل على عرقلتـــه وهدمـــه"**[13].

فالماضي هو ماض مثقل بالآلام، أما الحاضر، فهو البريق للمستقبل تسعى الشّخصيات المتبنية للأفكار الشيوعية في الرواية، إلى أن تحمل لوائه، وأن تدافع على الفقراء الذين كلّوا وملّوا من رتابة وضعيتهم التّي تأبى التغيير، وأن تكون هي الحاملة للواء التغيير، والثورة على الأوضاع، وذلك عبر إدراكها العميق ووعيها التام بالزمن.

ففي رواية «اللاز» يرتكز حلم «الطاهر وطار» على ضرورة تغيير الأوضاع عبر تلك القناعة الفكرية، والإيديولوجية التّي سيطرت على «زيدان» وأتباعه بشكل متباين، ربّما بسبب تفاوت درجة استيعاب كلّ واحد للموقف الإيديولوجي الذي تأكد في العبارة التّي كان يرددها «حمو»، و«اللاز»: "ما يبقى في الوادي غير حجاره" ودلالتها توحي جزئيا بانتشار الوعي الطبقي بين الأوساط الشعبية المحرومة، والمهمشة"[14]، خاصة بعد الاستقلال الذي كان يُنتظر منه الحرية، والرفاه، والعدالة الاجتماعية، بعد كلّ تلك التضحيات الجسام. غير أنّه لم يجن منه سوى فقراً، وحزناً يصوغان ذاكرة معذبة متألمة، جراء الصراع بين الواقع، والممكن، واقع يفرضه الحزب الحاكم للثورة، وممكن يطرحه الحزب الشيوعي الذي يسعى إلى تحرير الإنسان من شتى القيود، ومن هنا يقع الشعب بين فكي رحى الايديولوجيات، ورؤى المتناقضة للعالم.

وبما أن الروائي هو المبدع المخوّل لسرد هذه التناقضات، والصراعات، والتأريخ لتلك الفترة الزمنية وفق ما يتاح له من وسائل، وعبر معايشة الواقع اليومي للمجتمع، وما يتيحه التخييل له من حرية التعبير، والتحليق بعيداً في فضاءاته هروباً من الصرامة التّاريخية، فإنّه يخرج عن نهج المؤرخين الخاضعين في أغلب الأحوال لنهج السلطة المنتصرة، والحاكمة، ويصبح فرداً إشكالياً يبحث عن الحقيقة التّي يرى أنها الملاذ الوحيد لازدهار المجتمع، وإعادة بناءه، إذ يقول «لوسيان غولدمان» "المبدعون في كلّ الحالات –الذين يواصلون التوجه بصفة خاصة– نحو قيم الاستعمال، والذين بهذا الغرض نفسه يكونون على هامش المجتمع، ويصبحون أفراداً اشكاليين"[15]. فـــ «الطاهر وطار» هو المبدع الذي استطاع أن ينتقل من مرحلة الوعي الفعلي في المجتمع، المبني على مسلمات التّاريخ، ومسلمات الواقع الذي فرضته السلطة الحاكمة على المجتمع، إلى مرحلة متطورة من هذا الوعي، إذ أصبح فرداً إشكالياً يتطلع إلى الممكن ليس بترديد ذلك التّاريخ، الذي جمّلته السلطة، وبنت عليه شرعيتها، وإنّما من خلال إعادة قراءته قراءة كاشفة تفكيكية، تحاول الولوج إلى مكامن الحقيقة بغية إعادة بناء المجتمع، والذّات المخترقة بكثير من التبدلات، والتحولات العميقة. وهو يقول في هذا الصدد في إحدى الحوارات التّي أجريت معه في "مجلة الوطن الثقافي" في "الدوحة"، "فمنذ الانقلاب العسكري في الجزائر عام 1965، ظل النظام السياسي يسير على وتيرة واحدة تتغير الوجوه ولكن ضمن دائرة واحدة، هي الارتباط بما يسمى الثورة..."[16]، لأنّ هذه الأخيرة هي المرجعية التّي تستعملها السلطة من أجل الحكم، وقمع الآخرين.

ومن هنا كان لزاماً على الروائي العودة إلى ذلك الجانب المظلم من الثورة التحريرية، لأجل إبراز عدم مشروعية السلطة، عبر نقض المقدس فيها الذي تكرس في وعي الشعب، وأضحى توظيف التّاريخ في الرواية وسيلةً مثلى لفهم الواقع، لأنّ الرواية حسب تعبير «لوكاتش» هي "قصة بحث متدهور "جنوني"، بحث عن قيم أصيلة في عالم متدهور أيضاً، لكن في مستوى آخر متقدم عليه، وبصيغة مختلفة"[17]، حالمةً بتغيير مجتمعي، ينشد الخلاص من ذلك التدهور الذي يعبر عنه الكاتب بكلّ الصيغ، لأنّ المبدع هو من يمتلك القدرة على تصوير الواقع، تصويراً يستطيع من خلاله الولوج إلى مكامن الذّات، والنبش في ما ترسب في الوعي الجمعي، لعلّه يجد في ذلك منفذاً للتغيير.

فـــ «الطاهر وطار» أدرك خيبات الأمل التّي عانى منها شعبه، سواءً أبان الاستعمار الفرنسي، أو خلال فترة الاستقلال، إذ أصبح الشعب أكثر فقراً، تصوغه ذاكرة معذبة مثقلة بجراحات الثورة، وصراعاتها التّي لم تندمل بين الأفراد الشعب، والتي بقيت آثارها حتى بعد الاستقلال.

في إطار استرجاع الروائي لتاريخ الثورة، تظهر الهوية الوطنية في معطى وسياق ايديولوجي جديد يؤسس لوعي مغاير عما عرفه الشعب الجزائري، باعتبار أن الثورة لم تقتصر على فئة، أو مجموعة معينة، بل شارك فيها كلّ أطياف المجتمع، من إسلاميين، وعلمانيين، وشيوعيين... وغيرهم من التيارات الإيديولوجية التّي كانت تنشط في المجتمع الجزائري، والتوّاقة إلى الحرية، والانعتاق من قيود الاستعمار. وهي الرؤية الشيوعية الماركسية التّي نعتقد أن الروائي يحاول الانتصار لها، ويسعى إلى تقديمها بوصفها الرؤية الداعمة للمجتمعات، والباحثة عن تحررها، غير أنها ذبحت بسيف الدين. ثم نلاحظ أن الكاتب يعلن عن موقفه عبر شخصيتين هامتين فيعمد من جعل الشّخصية الدينية، وهي شخصية «الشيخ مسعود»، شخصية سلبية ظالمة مستبدة، وشخصية «زيدان» الشيوعية هي الشّخصية الإيجابية المظلومة. "فقد أعاد «الطاهر وطار» بناء الواقع من جديد، ووضعنا بعد ذلك أمام الحكم التّاريخي لنشير بأصبع الخيانة في النهاية إلى «الشيخ» لا إلى «زيدان»، فأظهر مقابل ذلك الخيانات التّي مارستها بعض التنظيمات الدينية المتزمتة التّي سقطت تاريخياً طعماً سهلاً في أيدي الامبريالية"[18]، ويعيد «الطاهر وطار» من خلال رجوعه للتّاريخ بناء وعي جديد على أساس مغاير للوعي الجمعي الذي كان سائداً، محاولاً إبراز الرؤية جديدة التّي تنتصر للشيوعية على حساب الإسلاميين المتشددين.

وهكذا نجد أن هذه الرواية هي رواية الذّاكرة بامتياز، تستدعي التّاريخ من أجل محاولة تفسير اللحظة الراهنة، تبدأ من الذّاكرة، والتيهان بين الأزمنة، في وعي تاريخي مكثف، يحمل عبء الماضي والمستقبل معاً، "فإذا كان الوعي التّاريخي الزائف ينفصل فيه الماضي عن الحاضر، وينغلق في زمن وهمي، فإنّ «اللاز» في وعيها الكثيف تشدّ الماضي إلى الحاضر، لتجعل المرئي، والمتحرك مقياساً للأزمنة كلها، فهي تكشف صفحات الاستبداد، وتنفذ إلى زمن القمع الجوهري الذي يظل ثابتاً حتى وإن تشكل في نماذج شتى."[19]

لقد أصبحت هذه الأزمنة بمثابة أغصان أنبت فيها الروائي متخيّله السردي، من أجل فضح الواقع الذي طالما جمّلته السلطة. "فالواقع في نظر الروائي هو المجهول، هو المحجوب، هو الوحيد الذي تتوجب رؤيته، هو فيما يبدو له، أوّل ما يتوجّب إدراكه. هو ما لا يقبل التعبير عنه بأشكال معروفة، ومستهلكة، بل هو الذي يتطلب، لكي ينكشف، أسلوباً جديداً في التعبير، وأشكالاً جديدة، لا يمكن أن ينكشف بدونها"[20]، فينسج مخياله السردي على عتبات الواقع، والذّاكرة المغيبة عن الوعي الجمعي الذي يأبى الإفصاح إلاّ من خلاله، لذا نجد الروائي هنا يستخدم نسق الاسترجاع، أو العودة للذاكرة التّي تعتبر من المرتكزات الأساسية في بناء هذه الرواية، قصد تأسيس لبناء وعي تاريخي جديد، من خلال تعرية الواقع الذي طالما تغنى بالتاريخ، وبالثورة المقدسة، وتجعل من هذه الأخيرة محطّ نقد، ومسائلة من أجل إظهار ضياع الهوية الوطنية، والحقوق، وتمزّق الذّات، وتناثرها بين الأيديولوجيات المختلفة، مما جعلها تدخل في دهاليز اليتم، والاغتراب.

وتبقى هذه الذّات في حالة تيهان بين الأزمنة إلى حين اليقظة، يقظة «الشيخ الربيعي» من غفلته **"هات بطاقتك يا عم الربيعي"**[21] ليجد نفسه في واقع ضحّى من أجله، بكلّ ما يملك في مقابل بطاقة منحة يتقاضاها كلّ شهر، تلك البطاقات التّي "تلسع الأيادي المعروقة، والعيون تدمن رؤية الوجوه القذرة التّي تسللت إلى السلطة احتفظت بجوهرها الأول، الفقراء الذين قاتلوا في الجبال ليستأنفوا فقرهم الأول"[22]. ويبقى الشعب في المعاناة نفسها، سواء مع الاحتلال، أو في كنف الاستقلال، لأنّ الامبريالية المسيطرة على مقدرات الشعب بقيت هي نفسها مع تغيير جلدها.

هكذا تصبح الرواية هي المعبّرة عن أحداث التّاريخ بعيداً عن يدّ السلطة، وإملاءاتها، وتوظيفها الدائم له، لتقدم خطاباً آخر يمتاز بالواقعية في الطرح، وفي المساءلة، كاشفة بذلك الحقيقة المغيّبة عن الشعب، حالمةً ببناء حاضر يقوم على المصارحة بين الإخوة الأعداء، رواية تنتصر للإنسان الكادح المغلوب على أمره، وتنبش وعيه الزائف المرتبط بالسلطة، وإملاءاتها التّاريخية، وتبثّ فيه الوعي الايديولوجي الجديد الذي لا يخرج عن رؤية الكاتب للعالم.

ويستمر هذا الوعي في النزيف في باقي الروايات، حيث تتقاطع سلطة الماضي مع الحاضر، خاصة في الجزء الثاني من رواية «اللاز»، وهي رواية "العشق والموت في الزمن الحراشي"، والتي تشي بوضوح أثر تلك الخلافات الإيديولوجية على الثورة، والوضع ما بعد الثورة. فـــ«اللاز» ذلك الفتى اللقيط الذي عرف ولادة جديدة في الثورة، اصطدم بواقع الإيديولوجيات المتناقضة حين ذبح أباه الذي افتقده طوال حياته أمام عينيه، ليصدم، ويدخل في حالة تيهان في الزمن، فالزمن متوقف عند «اللاز» منذ تلك اللحظة.

**"لا شك أن الزمن متوقف بالنســـبة إلى اللاز "**[23] **"اللاز لا يعرف وقتا معينا للنوم، أو للاستيقاظ .الزمن عنده واحد. الشمس مجرد كرة من النور الدخيل على الظلمة، تطوف بالكون"**[24].

فهو لم يعد يعي من الزمن غير تلك اللحظة التّاريخية، التّي ذبح فيها أباه البطل الثوري أمام عينيه من قبل قيادة الثورة، "فالصراع في «اللاز» كان بين يمين يستخدم الدين، وبين يسار، بين وطنيين ذوي أحكام مسبقة، وبين يسار وطني، بين الاستعمار، والثوار على الصعيد العام، وبين الثوار والثوار داخل الحركة الواحدة، كان هناك هذا المفهوم

الوطني الضيق الذي يختزن أحكاما مسبقة على الشيوعيين فرفضهم إطلاقاً رغم معاداتهم للاستعمار"[25]. لذلك نجد شخصية «اللاز» المجاهد، والبطل الثوري في حالة لا وعي نتيجة الصدمة بذلك الواقع، حين سلبت منه الشرعية، ليس الأبوية فقط، وإنّما شرعية الثورة التّي آمن بها، وانظم إلى صفوفها.

**" – مسكين اللاز . الصور لم تمت في ذاكرته. لعل ذلك فقط، ما يعرفه. أنّه يعـــيش ســـوى بمنظور واحد على ما يبدو. لماذا نعرضه على الأطباء. في الإمكان أن نطلـــب إرساله إلى الخارج، أو ليس اللاز مجاهدا وابن شهيد؟ –هذه المرة المليون ربما، التّي أسمع فيها منك ومن إخوانك هذا الاقتراح. لكن إلاّ تـــرون أن وضعه هكذا أفضل. ربي أراد هذا. أراد أن يكون هكذا. وسكان القرية لن يرضوا به إلاّ على هذه الحال. أنّه يكتسب يوما فيوما القداسة."**[26]

فصورة القتل بقيت لاصقة، وعالقة في الذّاكرة، ولم ترد أن تمر، أو أن تطوى، لأنّ الزمن بقي متوقف عند «اللاز»، كنوع من الرفض للواقع المعيش، فتجسد لنا الرواية ذلك الإنسان في حالة الاغتراب عن واقعه، وعن زمنه بسبب السياسات الخاطئة، وهي بدورها لا تبحث عن المنطلق، "بل تجعل من ضياعه موضوعا لها. فهي من الإنسان المغترب تأتي، وإلى الإنسان الغريب تعود، مترجمة ضعف الإنسان في وجود لم يأت إليه طائعا"[27]، وإنّما أُرغم على العيش في الزمان والمكان الذي فرضا عليه فرضاً. ومن أجل الهروب من هذا الواقع ما كان على «اللاز» سوى اللجوء إلى الدروشة، فبعد زمن الثورة، وزمن التضحيات من أجل الحرية، والانفتاح، أصبح زمن الدروشة، والخضوع، والتصوف بديلاً.

**"أنسيتم أن سيدي ارغيس، هرب على رأس جبل من سورية إلى الجزائر. وأن في قمتـــه إلى اليوم شجرة تنزف بالدم كلما جرحت. لقد تطهرت البلاد بالاستقلال، وعاد زمن البركة. زمن أولياء الله."**[28].

إنّ الاستقلال الذي ناشده الشعب الجزائري وناشدته الطبقة الكادحة الآملة في وضع أفضل لم يجلب لهم سوى الدروشة، ولجوء الناس إلى التصوف، وهذا دليل على الحزن العميق، وعلى النكبة التّي أصابتهم.

**"فالألم الكبير، والحزن الأعظم، ذروة التصوف. بعدها تأتي الغيبوبة في الإشراقة الكبرى. فيولد ما يرهبه السلاطين والطغاة والجبابرة"**[29]

لذلك فـــ«اللاز» هو الشعب الباحث عن هويته، وعن كينونته، وعندما وجدها، وحارب من أجلها اغتيل من رفقاء السلاح، الذين صفوا كلّ من لم يشاركهم الرؤى، ليدخل بعد ذلك الشعب في حالة من الذهول تشبه تلك الحالة من الدروشة بغية الهروب من الواقع المرير الذي فرضته السلطة الحاكمة، في انتظار الاشراقة الكبرى التّي قد تولّد التغيير. فهل يا ترى تعتبر الانتفاضة التّي حدثت في 1988 تعبيراً عن هذه الإشراقة؟ إذا كانت كذلك فالكاتب فعلاً له روح استشرافية لمسها الباحث في هذه الحالة، وفي حالات أخرى تكررت في هذه الأطروحة.

فـــ «الطاهر وطار» كان يعي جيداً مآل البلاد، والعباد، لأنّ تجارب التّاريخ تعلمنا أنّنا حين نقصي الآخر، وهو الشعب طبعاً، فإنّ الإشراقة الكبرى، أو الثورة، أو الانتفاضة الكبرى هي المآل الحتمي الذي سوف تؤول إليه الأمور، وهذا ما لمّح إليه الكاتب في قوله: **"حين يعود «اللاز» يكون الدرب مضيئاً فلا تعودون ترهبون الضلمة"**[30]**،** ولا مكان للخوف، والقهر، والسلب. فالروائي هنا لا يرى بُدّا من تغيير الواقع القائم إلاّ من خلال وعي الشعب بماضيه، وبحاضره، يعود من خلاله إلى بطولاته بحثاً عن الحرية التّي طالما ناشدها، حين ذلك يصبح الدرب مضيئاً، ويتحقّق النمو، والازدهار لذلك الشعب الذي عانى الويلات جراء الاستعمار، و لم تتحقق آماله بعد الاستقلال.

إنّ الروائي هنا يبرز بوضوح رؤيته الكونية، ووعيه الممكن اتجاه شعبه الخاضع للدروشة، والخنوع، والسكون لمصيره المحتوم، وينتقد من خلاله الوعي القائم لديه، المستسلم لمسلمات الأمور، وعدم وجود فاعلية في تغيير الأوضاع، ومساءلتها. وفي خضم كلّ هذه السلبية اتجاه الواقع، يبقي الكاتب الأمل في المستقبل رغم كلّ ذلك التشاؤم الواضح في ثنايا الرواية.

**"في كلّ قرية وفي كلّ مدينة لاز. ولا يعقل أبداً، أن تبقى قريتنا بلا لاز (...) أن «اللاز» هو الشعب. وأن الشعب هو المستقبل. وأن الإيمان بالمستقبل، هو سلاح كلّ مناضل ومناضلة"**[31].

فالمستقبل ليس بيد السلطة، وإنّما بيد المناضلين من الشعب، خاصة الطبقة الكادحة التّي طالما عانت من ويلات الاستعمار، ومن ويلات أبناء جلدتها الذين تقلّدوا المناصب، وتركوا الشعب في فقرهم الأول.

إنّ «الطاهر وطار» أراد من خلال عمله هذا استدعاء تاريخ الثورة ليس بالمجاملة، والافتخار، والقدسية التّي طالما تعودنا عليها، وإنّما أراد أن يلقي الضوء على قضايا جدّ حساسة، لم تؤثر على مسار الثورة فحسب، وإنّما كان لها تأثير واضح على الراهن الجزائري، وواقع الشعب، لذلك نجده يشرح عيوب تلك الفترة الزمنية بالنقد، والتحليل، وهذا "ينمّ على معايشة الروائي اليومية، ووعيه السياسي، والاجتماعي لأحداث الثورة الجزائرية، وأزماتها، ومشكلاتها، وخلافاتها التنظيميّة[32]. فهي تعتبر "كانجاز فني جريء، وضخم، يطرح بكلّ واقعية، وموضوعية، قضية الثورة الوطنية لا من وجهة التحالفات المنطقية لقوى الثورة التّي فرضتها تلك المرحلة، ولكن كذلك من وجهة التناقضات الداخلية التّي كانت تحدث داخل الحزب الواحد."[33]

فجرأة «الطاهر وطار»، ومعرفته لخبايا الحزب الحاكم جعلت منه يفتح الكوّة ليقتحم تلك الدهاليز المظلمة في الثورة، ويتعدى الخطوط الحمراء لها. كيف لا؟ وموضوع الخلافات داخل الثورة، يصعب على المؤرخين الولوج إليها بالنقد، أو بمجرد التشكيك في أحداثها، "فعندما يعاود الروائي النظر في تاريخ الثورة بما انطوى عليه وعيه الجديد، فإنه يخرجه من الوثوقية إلى النسبية بفعل هامش الحرية، واتساع المتخيّل الروائي، ولذلك فإنّ الصّورة التّي انتهى إليها بعد جهد، وعناء هي صورة تنكّر للكثير مما استقر في أذهان كثير من الناس عن تاريخ الثورة"[34]. التّي طالما قدّسها الشعب الجزائري، بل والعربي، وحتى العالمي. ويعتبر هذا الخروج عن خط السلطة، التّي طالما اجتهدت في رسم وعي شعوبها بتقديس الثورة التّي يستمدون منها شرعيتهم.

غير أنّ الكتابة في هذا الصدد، لم يكن بالأمر السهل عند «الطاهر وطار»، حيث يصرح في هذا الصدد فيقول: **"كتبت الرواية في ظروف صعبة جدا بين 1965م و1972م أي على إثر انقلاب 1965 الذي لم تبرز هويته منذ البداية، فظهرت حركة ارتداد عن الاشتراكية وأصبح الشيوعي يخاف على نفسه، ومع ذلك كتبت بحماس وإصرار واستنسخت من الرواية ثلاث نسخ واحدة عندي، وواحدة في مكان آمن وواحدة لصديق، وعندما صدرت بقيت شهراً كاملاً وأنا أنام بثيابي خوفاً من مداهمة بيتي وحملي إلى السجن، ولكن ذلك لم يحدث واقتنعت السلطة بأنها تؤسس الدولة، ونحن الأدباء نؤسس تقاليد أدبية وثقافية جيدة وواعية ومغيرة"**[35].

هكذا كانت الرواية المشتغلة على الذّاكرة تدخل غمار الصعاب، لأنّها تبوح، وتقول ما لا يقوله المؤرّخون، "فالتاريخ رغم صرامته فإنّ له مساحة مشتركة مع الرواية تجعل الحدود الفاصلة بين الرواية، والتّاريخ مغيّمة، وتمنح الروائي فرصة للتعامل مع التّاريخ دون خوف من المزالق، وتوفّر لفعل الكتابة قدراً كبيراً من الحرية التّي ينتفي من خلالها التطابق الكلي، أو ترديد التّاريخ."[36] فالرواية لا تنقل التّاريخ بحرفيته، وإلا أصبحت تاريخاً، إنّما هي رؤية فنان (الروائي) لهذا التّاريخ، يوظفه كما يشاء للتعبير عن تجربته، وعن رؤيه للعالم، بإعادة عرضه تمهيداً لاستثماره ممزوجاً بتوضيحات، واستكمالات يفترض أنها غُيبت عنه. وبهذا يغدو التّاريخ نوعاً من أنواع السرد، أو ملفوظاً من الملفوظات السردية، تعيد تشكيل وعي القارئ بالتاريخ وفق الرؤية الكونية للكاتب، عبر التخييل الذي يورط القارئ في مساراته المختلفة والمتنوعة.

أما في استشراف المستقبل، فيظهر رؤية الكاتب للمستقبل، الذي لا يرى فيه إلاّ العنف، والقتل بسبب التشدّد الديني، فكما قَتل «الشيخ مسعود» «زيدان» بسبب مواقفه الايديولوجية، فإنّ شخصية «مصطفى» المتعصبة تحاول قتل شخصية «جميلة» في رواية "العشق والموت في الزمن الحراشي" بسبب أفكارها، وايديولوجيتها الاشتراكية، والشيوعية، وهذا ما سيتكرر في باقي رواياته التّي تظهر مآل البلاد، والعباد، ودوامة العنف التّي أُدخل فيها الوطن، بسبب السلطة الحاكمة، والأصوليين الإسلاميين، وكأنها تجسيد لمقولة "تاريخ يعيد نفسه".

**"ما حدث في بلادنا وما يحدث الآن أيضا لا يخضع لحركات الأفراد، وإنّما لحركة التّاريخ، وما حركات الأفراد إلاّ ظواهر لحركـــة المجتمع. وكما أن شعبنا لم يكن بطلا كله، فإنه لم يكن مترديا كله"**[37].

فالتاريخ في سيرورته هو ترجمة للمجتمع، ومرآته العاكسة لحركيته، وهنا نجد أن هذا الكلام هو مقتبس من الأفكار الماركسية، من خلال مقولة الجدلية التّاريخية لـــ «كارل ماركس»، وكذلك مقولته الشهيرة "التاريخ يعيد نفسه مرتين: مرة على شكل مأساة، ومرة على شكل مهزلة... وما نراه الآن هو المهزلة!"، وهذا ما نظن أن «الطاهر وطار» يقصده، فالتاريخ يعيد نفسه بتكرار المآسي ذاتها، مرة على يد المستعمر الغاشم، ومرة على يد أبناء جلدتنا، في انتظار مستقبل يسوده الشك.

من هنا تصبح الرواية التّي تشتغل على الذّاكرة السياسية التّاريخية، رواية البحث عن حقيقة الإنسان في بحثه الدائم عن الحرية، والخلاص، "فهي كتابة تستعيد الأحداث، والوقائع المرتبطة بعنف الدولة، وانتهاكات حقوق الإنسان، بما في ذلك حق التعبير من خلال الكتابة، وما نتج عن ذلك كلّه من ضروب المعاناة والآلام، والعنف، والإزاحة. لذا فإنّ ما يميّز هذه الرواية المناهضة، هو أدبيتها، وطريقتها في تشكيل الخطاب حول الذّاكرة، وتفاصيلها التّي تبقى عنصراً مهيمناً في هذه الكتابة التّي تتحدى هذه الأشكال القمعية، وتواجهها بخيارات ابداعية، تعكس تنوع الاقتراحات الجمالية، والأسلوبية، مما يجعل الكتابة تنوس بين الكشف العاري عن الدور القمعي لدولة ما بعد الاستقلال، أو التعبير الرمزي الذي يجترح أفقاً للقول يُجنّبُها المواجهة المباشرة مع حرّاس المؤسسة السياسية."[38]

هكذا يصبح هذا اللون الروائي المناهض هو المتنفس، والوسيلة الأساسية التّي تتيح استرجاع الذّاكرة بجروحها المزمنة عبر رؤية مخالفة لرواية السلطة المجمّلة ذلك التّاريخ، والمغيّبة لحقائقه السياسية، والاجتماعية، لترحل بالقارئ، وتعيده إلى أجواء الأحداث مقرونة بالواقع المعيش عند الإنسان، ليستشعر الحدث بكلّ تفاصيله، وجزئياته، ويكوّن فكرةً مغايرةً لما عهده من حقائق، ومسلمات، يعيد من خلالها التفكير، والتدبير، ليتحرّر من سلطة الذّاكرة المزيفة، ومن وعي تاريخي زائف، إلى رحاب ذاكرة الحقيقة التّي يتطلع بها إلى ممكن ينفذ به للمستقبل.

**الهوامش:**

[1]- جعفر يايوش، ***الأدب الجزائري الجديد*** (التجربة والمآل)، المركز الوطني للبحث في الأنثرويولوجيّة الاجتماعيّة والثقافيّةCRASC، مطبعةAGP، وهران، ص73.

[2]- مخلوف عامر ***توظيف التراث في الورواية الجزائريّة*** مرجع سبق ذكره،ص26.

[3] واسيني الأعرج: «الطاهر وطار»: تجربة الكتابة الواقعية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989 ،د. ط، ص37

[4] «الطاهر وطار»، اللاز، رواية، ص08

[5] اللاز، ص10

[6] سعيد بنكراد : السرد الروائي وتجربة المعنى، المركزالثقافي العربي، الدار البيضاء، ط 1 2008 ،ص 140.

[7] - اللاز، ص7

[8] ويتم الاسترجاع في الرواية حين يترك الراوي مستوى القص الأول ليعود إلى بعض الأحداث الماضيّة ويرويها في لحظة لاحقة لحدوثها – ينظر: أحمد قاسم سيزا، بناء الرواية-دراسة مقارنة لثلاثية نجيب محفوظ، الهيئة المصرية العامة للكتاب،1984 ،ص40

[9] اللاز ص7

10 اللاز ص7

[*]التشيؤ : هو مفهوم ماركسي صاغه لوكاتش من السياق الاقتصادي (صنمية السلع) إلى علم الاجتماع كتصور الظواهر الإنسانية وعلاقاتها كما لو كانت أشياء ينظر جورج لوكاتش، التّاريخ والوعي الطبقي

11 اللاز ص8

[12] الشمعة والدهاليز ص89

[13] رواية اللاز : ص42

[14] نورة بعيو، روايات «الطاهر وطار» بين قيود الأدلجة وحداثية الكتابة، أعمال الملتقى الدولي الخامس في تحليل الخطاب، الخطاب الروائي عند «الطاهر وطار»، يومي 23-24 فيفري 2011، جامعة قاصدي مرباح، ص130-131

[15] Lucien.Goldmann .pour une sociologie du Roman, Paris . Gallimard.1964. p 38

[16] زهرة ديك، «الطاهر وطار» هكذا تكلم..هكذا كتب.، منشورات دار الهدى، عين مليلة، الجزائر2013، ص32

[17] Lucien.Goldmann .pour une sociologie du Roman, Paris . Gallimard.1964. p 23

[18] واسيني الأعرج: «الطاهر وطار»: تجربة الكتابة الواقعية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989 ،د. ط، ص26

[19] فيصل دراج، دلالة العلاقة الروائية، ص217

[20] ناتالي ساروت، الرواية الجديدة والواقع، لوسيان غولدمان، مقدمات في سوسيولوجية الرواية، تر: بدر الدين عرودكي، ط1، 1993، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، سوريا، ص176-177

[21] اللاز ص275

[22] – فيصل دراج، دلالة العلاقة الروائية، ص216

[23] «الطاهر وطار» :العشق والموت في الزمن الحراشي، موفم للنشر الجزائر 2007 ص32

[24] «الطاهر وطار» :العشق والموت في الزمن الحراشي، موفم للنشر الجزائر 2007 ص 17-18

[25] بوشوشة بن جمعة: اتجاهات الرواية في المغرب العربي، المغاربية للطباعة والنشر والإشهار، تونس، ط1، 1999، ص328

[26] «الطاهر وطار» :العشق والموت في الزمن الحراشي، موفم للنشر الجزائر 2007 ص 12

[27] فيصل دراج : نظرية الرواية والرواية العربية، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1 1999 ،ص 262

[28] – «الطاهر وطار» :العشق والموت في الزمن الحراشي، موفم للنشر الجزائر 2007 ص22

[29] «الطاهر وطار»: الحوات والقصر، موفم للنشر، الجزائر،2013، ص97.

[30] «الطاهر وطار» :العشق والموت في الزمن الحراشي، موفم للنشر الجزائر 2007 ص234

[31] «الطاهر وطار» :العشق والموت في الزمن الحراشي، موفم للنشر الجزائر 2007 ص246

[32] – أحمد محمد عطية، ***البطل الثوري في الوراية العربيّة الحديثة***، وزارة الثقافة، دمشق، 1977،ص 254.

[33] – واسيني الأعرج ***اتجاهات الوراية العربيّة في الجزائر*** (بحث في الأصول التّاريخية والجمالية للرواية الجزائرية)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986 ص90.

[34] بومدين صالح، رواية الاز للطاهر وطار، أو المسكوت عنه في التّاريخ الثورة، مجلة البحوث والدراسات الإنسانية، جامعة سكيكدة، العدد13، 2016، ص66

[35] محمد بن رجب: حوار مع «الطاهر وطار»، جريدة الصباح التونسية، 04/17. /1984، ص25 نقلا عن بومدين صالح، رواية الاز للطاهر وطار، أو المسكوت عنه في التّاريخ الثورة، مجلة البحوث والدراسات الإنسانية، جامعة سكيكدة، العدد13، 2016

[36] – واسيني الأعرج، ***الوراية تطرح سؤال المستقبل*** موقع ديوان العرب، http://www.diwanalarab.com/spip.php?article37031

[37] «الطاهر وطار» :العشق والموت في الزمن الحراشي، موفم للنشر الجزائر 2007 ص 240.

[38]إدريس الخضراوي، سرديات الأمة- تخييل التّاريخ وثقافة الذّاكرة في الرواية المغربية المعاصرة، أفريقيا الشرق، د.ط، 95،2017